الندوة علمية حول:الصحراء في الرواية العربية المعاصرة يوم الأربعاء 24 أفريل 2024.

عنوان المداخلة: سحر الصحراء بين الانبهار والتماهي: دراسة في رواية قدس الله سري نموذجا.

ط/د: آمنة عنوش/ المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف، ميلة.

البريد الإلكتروني: a.annouche@centre-univ-mila@dz

ملخص المداخلة:

تعتبر الصحراء من أكثر عناصر الموروث الثقافي اتساعا وغموضا؛ ولأنها مكون منفتح على فضاءات الثقافة؛ نجدها عنصرا ملهما للمبدعين باختلاف أنواعهم. ويعتبر الروائي أحد أكثر أقطاب المنظومة الإبداعية فاعلية بامتلاكه سحر الكلمة وتطويعها لتتجلى والفعل السردي استحضارا لأكثر الأماكن التي يُمارِسُ المخيال الإبداعي فيها أدواته. يشحنها برموز وأبعاد أنثروبولوجية وإيديولوجية ليشكل منها نسيجا تتآلف فيه عناصر السرد وفق رؤى عديدة ومتجددة.

وتعد تجربة الروائي محمد الأمين بن ربيع في منجزه الروائي (قدس الله سري)، تجربة فريدة مغايرة انتهج فيها سردا مضادا يتعاظم فيه سحر الصحراء سطوة وخصوصية ثقافية، جعلت من الآخر الفرنسي صيدا يعظّم شعائر المقدس المادي والروحي فيها. تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عن بعض الإشكالات: كيف اكتسب المكان حمولة ثقافية متعدية من فعل انبهار ودهشة إلى فعل تماهٍ وذوبان في الآخر الجزائري؟ على أي أساس بنى الآخر هذه العلاقة مع المكان كبؤرة موجه إليها؟ وكيف انتصر الروائي في سرد مضاد لطبيعة الصحراء الجزائرية كموروث ثقافي متعدد المعالم؟

الكلمات المفتاحية: الصحراء، الآخر، السرد والسرد المضاد، المركز/الهامش، الثقافة.

ABSTRACT:

The desert is considered one of the elements of cultural heritage in terms of vastness and mystery; because it is an open component to cultural spaces, we find it an inspiring element for creators of various kinds. The novelist is considered one of the most effective poles of the creative system by possessing the charm of words and adapting them to manifest narrative action as an invocation of the most imaginative places where its tools are practiced. It charges them with anthropological and ideological symbols and dimensions to form from them a fabric in which narrative elements are composed according to various and renewed perspectives.

The experience of the novelist Mohammed Al-Amin Ben Rabie in his novel "Quds Allah Siri" is a unique and contrasting experience in which he adopted an anti-narrative that magnifies the charm of the desert's power and cultural specificity, making the French "other" exalt the rituals of material and spiritual sanctity within it. Therefore, the problematic of the subject is: How did the place acquire a transcendent cultural charge from an act of fascination and wonder to a harmonious assimilation and melting into the Algerian "other"? On what basis did the "other" build this relationship with the place as a directed arrow towards it? And how did the novelist succeed in an anti-narrative of the Algerian desert as a multi-faceted cultural heritage?

Keywords: Desert, Other, Narrative and Counter-narrative, Center/Margin, Culture

مقدّمة:

تتملك الصّحراء بفضائها المفتوح سحرا نافذا لقلوب روادها وقاطنيها، فهي موروث ثقافي غني يضمن من الفرادة ما يمكّن لها خصوصية ثقافية تميزها عن بقية المجتمعات الإنسانية، ويجعلها إطارا إبداعيا مفتوحا على تضاريس طبيعية ملهمة وغامضة، ومنفتحا على الآخر الوافد إليها ضمن ممكنات الغاية، وهذا ما يجعل المجتمع الصحراوي يدخل في علاقات تبادلية تترأسها ثنائية (التأثير والتأثر). فهي حيز جغرافي مشحون برموز وأبعاد أنثروبولوجية وأخرى إيديولوجية، يشكل منها الروائي نسيجا تتآلف فيه عناصر السرد مشكلة رؤية حضارية إبداعية لامتناهية.

وإذا عدنا إلى طبيعة الصحراء الجزائرية من منظور الروائي الجزائري المعاصر، نجد أن لهذا التوظيف دلالات مختلفة بحمولات ثقافية تتعدد وطبيعة الطرح بين التاريخي والجغرافي والسياسي والثقافي، خاصة ما تعلق الأمر منها بالفترة الكولونيالية من تاريخ الجزائر كمستعمرة فرنسية. فالروائي في هذا الطرح يعالج المكان من زاوية السرد في إطار ما يعرف بالتقاطع الثقافي بين ثنائية (الأنا والآخر) في خط أفقي وآخر عمودي يهيمن فيه المركز –غالبا– على الهامش. لكن، إذا عدنا إلى تجربة الروائي محمد الأمين بن ربيع، في منجزه الروائي (قدس الله سري)، نجد طرحا مغايرا في سرد مضاد يتعاظم فيه سحر الصّحراء سطوة وخصوصية ثقافية، والتي جعلت من الآخر الفرنسي صيدا يعظّم شعائر المقدس المادي والروحي فيها. وعليه فالإشكالية المطروحة حسب ما يتطلبه عنوان المداخلة هي: **كيف اكتسب المكان حمولة ثقافية متعدية من فعل انبهار ودهشة إلى فعل تماهٍ وذوبان في الآخر الجزائري؟ على أي أساس بنى الآخر هذه العلاقة مع المكان كبؤرة موجه إليها؟ وكيف انتصر الروائي في سرد مضاد لطبيعة الصحراء الجزائرية كموروث ثقافي متعدّد المعالم؟**

ولهذا، فالدراسة تهدف إلى إبراز قيمة هذا التّقاطع الثقافي الذي يسير في خط مخالف للمألوف، يعرض توتّر العلاقات بين الشعب وسلطته الحاكمة، وهشاشة المعتقد والقطيعة الثقافية والهوياتية التي تبناها الفرنسي كمركز، ويمجد

الهامش –بجميع تفاصيله– وينتصر له، من خلال إبراز سطوة المكان وثقافته التي سحرت الآخر في ظل قدسيته، ممثلة في شخصيات فرنسية كثيرة خرجت عن المألوف الفرنسي الذي أقرته السلطة الاستعمارية، كسياسة كولونيالية انتهاكية مستبدّة، ترى في الآخر الجزائري هامشا مستباحا. ومن أجل الكشف عن قيم التقاطع وآثاره، اخترت القراءة الثقافية إذ تعتبر الأنسب لإبراز الأنساق الثقافية للسّرد المضاد.

لقد استحضر الروائي من التاريخ أحد هذه الأسماء الفرنسية اللاّمعة، ممثلة في شخصية الرسام الفرنسي (إيتيان دينيه)[1] الذي سُحر بطبيعة الصحراء وافتتن بثقافتها ونسائها، واعتنق الإسلام وأصبح اسمه (ناصر الدين دينيه). والمتتبع لخط السرد الذي اتبعه الروائي محمد الأمين بن ربيع في طرحه لتيمة الصحراء، يدرك أنه طرحٌ مغايرٌ للنّسق الذي انتهجه كتّاب الرواية قبله من أمثال رشيد بوجذرة ومليكة مقدم –بغض النظر عن لغة الكتابة–[2]؛ حيث نجده قد اعتمد على سرد مضاد يثبت فيه انتصار الأنا الجزائرية ممثلة في سطوة المكان على شخصيات الرّواية.

مارس محمد الأمين بن ربيع، في روايته ما بعد الكولونيالية "توغله الفكري والإيديولوجي في وعي الهامش"[3]، وتعدى النّظرة الاستشراقية للآخر –الفرنسي/ المركز– الذي يرى في صحرائنا المتعة والفرجة والسياحة، إلى "خطاب جمالي يضمر، بالضرورة، جملة أنساق ثقافية وسياسية واجتماعية وتاريخية"[4]متعدّدة، خلقها الوضع الاقتصادي والاجتماعي لبعض الأقليات الفقيرة المعدمة، والتي أرادت فرنسا أن تصدّرها بكل حمولاتها العفنة إلى الجزائر عامة والجنوب خاصة، تحت سياسات المستثمرات الكولونيالية.

---

[1] الرسام العالمي ألفونسو إيتيان دينيه (1861– 1929)م، سليل العائلة البرجوازية، عاشق بوسعادة الذي أسلم في سنة 1913م، فأصبح اسمه ناصر الدين دينيه، لم يكتف دينيه بالرسم كوسيلة لحوار الشرق حوار حضاريا قائما على الندية والاعتراف الممزوج بالتقدير بل مارسه عن طريق الكتابة والتأليف فكتب السيرة النبوية ورسم بعض المشاهد المعبرة من السيرة المحمدية ونقل هذا الكتاب إلى العربية شيخ الأزهر عبد الحليم محمود والحج إلى بيت الله الحرام وأشعة خاصة بنور الإسلام والشرق كما يراه الغرب وبالرغم من أن كتاباته لا تنطوي على عمق كبير ولكنها تنطوي على صدق ومقاربة روحية للإسلام تستخلص روحانيته. ينظر إبراهيم مشارة، إيتيان دينيه.. منعطف جديد في الفن الاستشراقي، مجلة قلم رصاص الثقافية(qalamrsas.com) ، الاثنين 17 مارس 2024م، الساعة: 9:40.

[2] ينظر آمنة بلعلى، متخيل الصحراء وإعادة تشكيل المركز في الرواية الجزائرية. https://www.symiaconseil.dz/ ، الثلاثاء 12 مارس 2024م، الساعة: 12:30.

[3] عبد الفتاح أحمد يوسف، النقد الحضاري لخطاب ما بعد الكولونيالية، الطبعة الأولى، دار الروافد الثقافية – ناشرون: لبنان، 2021م، ص66.

[4] محمد الشحات، خارج المنهج، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية: القاهرة، 2022م، ص 80.

وعلى هذا الأساس يمكننا البدء في دراسة تمثلات أنساق التأثر، التي انعكست على شخصية الآخر الفرنسي، بدلا من مركزية الهيمنة وسلطة التأثير التي فرضتها الكولونيالية الامبريالية لترتدّ عليها، فتتحّول إلى انبهار، ثم انغماس في ثقافة الهامش. لقد اختار الروائي الجنوب ليمرر من خلال شخصياته دعوات صريحة من عمق الذات الممثلة في (أدريان وفيليب وستيفاني وإيتيان دينيه)، مضيفا إلى تاريخ السيطرة والاستغلال الجيوسياسي والاقتصادي، مَلمحًا غير معتاد تبرز فيه قيمة الأنا/الهامش وعلوها على المركز.

1-نسق الإعمار والهيمنة قلبٌ للموازين:

لقد عززت فرنسا ممارساتها التوسعية، كسلطة تغلغل ونفوذ، بتوجيه أنظارها للجنوب بغية استغلال الصحراء وتعزيز سيطرتها على المنطقة، في محاولة منها لتوسيع نطاق الحضور الثقافي الفرنسي، وذلك بتشجيع الهجرة والاستيطان، في دعوة مباشرة لفرض الهيمنة واستغلال الموارد التي تعتبر مصدرا هاما لتدعيم اقتصادها. ووفق هذه السياسة التعسفية تم تهميش السكان الأصليين واستغلالهم لخدمة أهداف السيطرة والهيمنة الكولونيالية.

حاول محمد الأمين بن ربيع -بناء على هذه النظرة- أن يبني منعطفا سرديا يعيد فيه ترتيب الأدوار بإخضاع الآخر إلى الأنا الجزائرية، وفق سطوة الصحراء وسحرها وفسيفسائية ثقافتها؛ حيث استلهم من المكان المستباح -قسرا- ممكنا بمدلولات مخصوصة، أثبت من خلاله الهوية الثقافية، إذ حاول من خلال السرد المضاد "مقاومة ذلك الشد الثقافي باتجاه الآخر، الذي يحاول اقتلاعه عن جذوره"[1]، وقلب معادلة تبعية الهامش للمركز، في مواجهة "هي أقرب إلى مواجهة الاختلاف الثقافي وتبنّي مواقف مؤسسة"[2]على سحر المكان وخصوصيته الثقافية.

وتتجلى الخصوصية الثقافية تلك في مجموع البنى الثقافية، والتفاعلات الاجتماعية والاقتصادية لمدن وقرى الجنوب الجزائري بشكل خاص، تلك البنية الصحراوية التي تستهدفها السلطة الكولونيالية لأغراض الهيمنة. هذه المجموعات الثقافية التي هندست الكولونيالية كيفية إشراكها في مواجهة حضارية مهيمنة، تفعّل فيها حلقة التأثير

[1] شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية: القاهرة، 1432هـ/ 2011م، ص 203.

[2] محمد الشحات، خارج المنهج، ص 80.

والتأثر كبؤرة توتر بغية التفرقة والنفوذ؛ طوّعها الروائي لصالح السّرد المضاد الذي فعّل هذه المرة قابلية الآخر للأنا، وأثبت حقيقة "الهروب الجغرافي نحو الآخر"[1] الجنوبي، ملقيا نفسه بكل ثقله في أحضان الصحراء الجزائرية.

لقد استغل محمد الأمين بن ربيع لعبة السرد المضاد ليقحمنا "في تجربة أخرى من غرابة السّرد الذي يتلبس الأسماء والأشياء والشخصيات والمكان والمغامرة"[2]، وانتحى بخطابه متجاوزا تجارب الروائيين –من قبله– الذين كتبوا عن الصحراء، وابتدع وعيا مغايرا ينفتح على الآخر، رفعا منه للذات الجزائرية العربية المهمشة بدعم غير متوقع من السياسة الكولونيالية.

2–نسق الهروب ومنطق النجاة:

لقد جسّد خطاب الرواية "رغبة الآخر فينا"[3]، بحثا عن المفقود المرتبط بالسعي لتحقيق الغاية في الانتماء والتواصل، والتوازن بين المعتقدات الذاتية والحاجيات الاجتماعية والنفسية، وذلك للتّحرر من سلطة الهوية المضطربة التي خلفها عوز وفاقة الطبقات الدنيا في هرم البنية الاجتماعية الفرنسية. ونلاحظ أن محمد الأمين بن ربيع قدم "الطرح الموضوعي التاريخي الذي يتناول الأرض الصحراوية بعين"[4] الآخر، إضافة إلى النّظرة النّمطية للصّحراء كونها "فضاء للاستمتاع بجزائر الشمس وبلحظات الغروب، مثلما كرّسته النسقية الكولونيالية"[5] من أجل تشجيع الهجرة نحو الجنوب.

أ– ثورة الحب والبحث عن الذات:

(أدريان) الفتاة الهاربة من جبروت الخذلان الذي حرمها الحب الصادق، واستحل جسدها بمسميات العشق المدنس، وأقحمها حد الانغماس في علاقات أجبرها عليها زوجها المقامر المستهتر، ها هي الآن في رحلتها إلى الجزائر

---

[1] شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، ص 204.

[2] آمنة بلعلى، متخيل الصحراء وإعادة تشكيل المركز في الرواية الجزائرية. https://www.symiaconseil.dz/ ، الثلاثاء 12 مارس 2024م، الساعة: 12:30.

[3] شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، ص207.

[4] المرجع السابق، ص208.

[5] آمنة بلعلى، متخيل الصحراء وإعادة تشكيل المركز في الرواية الجزائرية. https://www.symiaconseil.dz/ ، الثلاثاء 12 مارس 2024م، الساعة: 12:30

وقد حُصرت بين حلم الانتماء وثورة التغيير. وهي الآن واثقة بأن ما تساق إليه حتمية قدرية؛ إنه ليس حلما –فقط– كما كانت تعتقده، وإنما هو انتظار محكوم عليه بالحدوث **"عرفتُ في تلك اللحظة أن الذي أنا مقدمة عليه، ليس مجرد جنون أو هروبا من شيء مللته، فقررت تغييره، بل كان شيئا أقوى مني، كالقدر المرسوم لنا في الغيب"**[1]. هي تبحث عن ذاتها في ظل الصحراء الفاتنة، فقد انتظرتها من خلال أحلامها، وعشقتها وسُحرت بجمالها، وفيها بحثت عن الحب حتى وجدته. وتمنت أن تكون منها وإليها؛ وهذا ما صرحت به (لنائل) في أول لقاء بينهما **"لقد أجبتَ عن سؤال يسكن داخلي منذ مدة طويلة، لابد أن الإنسان يطمح لتوطيد علاقته بالطبيعة التي ينتمي إليها دائما، لكم تمنيت أن أنتمي إلى هذا المكان"**[2].

لقد قررت (أدريان) بعد تجاربها القاسية أن تمنح لنفسها فرصة النجاة والثورة على أحداث الماضي، بتغيير نمط تفكيرها وحياتها التي رسمتها لها أحلامها والكتاب الذي قرأته على ظهر السفينة. **"قرّب مني الورقة التي تحمل معلومات الإقامة، وطلب التأكد من صحة تلك المتعلقة بي، أردت أن أخبره بأن كل ما فيها خاطئ، لأنني ابتداء من نزولي على رصيف الميناء قرّرت أن أكون شخصا آخر"**[3]، وفي سلسلة الثورة النفسية والحسيّة غيرتْ اسمها؛ وهو أول تغيير في سلم الانبهار الهوياتي بالآخر الشرقي. **"كان عليَّ قتل أدريان وإحراق كل أثوابها وأفكارها ومسلماتها ومشاعرها السابقة وشهواتها وقرفها ونزقها وخنوعها... كان عليَّ إحلال شمس النهار محلها"**[4].

يبرر (نائل) الشاب البوسعادي، والذي سيكون زوج (أدريان) فيما بعد، هروبها **"لقد هربت من زوجها الرومي لأنها تبحث عن حياة جديدة، لقد أعجبتها حياتنا"**[5]، إنه منطق (أدريان) التي "تهرب بخيالها من القوانين التي تحكم المجتمع وهي تحلق نحو الحياة والحب"[6]من جهة، ومنطق (ستيفاني) التي هيئتها من خلال تصوير حياة المرأة الشرقية وهنّ على متن الباخرة هاربات من قيود المجتمع الفرنسي إلى جزائر الحرية، وصحراء المتعة والشغف من جهة

---

[1] محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، منشورات الوطن اليوم: الجزائر، 2016م، ص 96.

[2] المصدر نفسه، ص 42.

[3] المصدر السابق، ص (109، 110).

[4] المصدر نفسه، ص 112.

[5] المصدر نفسه، ص 7.

[6] سهير توفيق، الذات والحب، د. ط، مطابع الأهرام بكورنيش النيل: مصر، د. ت، ص 129.

أخرى. إنها مستعدة سلفا لهذا الانجذاب الروحي والجسدي الممهّد للانبهار ثم الانغماس، خاصة بعد الأحلام المتكررة التي كانت ترسل فيها أمواج البحر لها سعف النخيل[1].

لقد تمثلت أحلام (أدريان) حول الصحراء في أحلام منامية مستمرة تدفعها دفعا نحو الجنوب تحديدا، وأخرى كانت تأتيها في يقظتها تحفز نظرتها التأملية التي قرأتها في كتيب على ظهر السفينة للشهاب الحجازي[2](الكنس الجواري في الحسان من الجواري)، والذي فتح لها عوالم المرأة العربية الشرقية على مصراعيها. وهنا تتّضح جليا تلك النظرة الاستشراقية[3] في مخيال الآخر قاصرة محصورة بأطر الجمال والحب والمرأة والجنس والرقص.

لقد جُسّدت الصحراء بالنسبة للآخر في الرموز الجغرافية، والأنثروبولوجيا الثقافية العربية، واقترنت في ثقافته صورة العربي بصورة الصحراء، سواء برومانسيتها، أم بفانتازيتها[4]، وهي كذلك هنا عند (أدريان وستيفاني والرسام ناصر الدين دينيه)، فالصحراء في مخيالهم "مكان ممتلئ دلاليا"[5] بالمتعة والشبق، مملوء بعبق الثقافة المغرية محصورة في فتنة الرقص والنساء والحب والسياحة. وهنا نجد أن الروائي زاوج بين الوجهين لنظرة الآخر للصحراء، الأولى بريق أخاذ وانبهار يعزز وهم المتعة والصورة الكلاسيكية الاستشراقية للغرب عن الشرق[6]، والثانية ذوبان وتماهٍ في سحر الخصوصية الخصوصية الثقافية لمجتمع الجنوب ضمن ثنائية التأثير والتأثر، ويظهر التّماهي في:

- ✓ تخلي (ستيفاني) وبعدها (أدريان) عن عاداتهما وحياتهما بإحداث القطيعة مع ماضيهما: **"مشيت وأنا أجرّ تلك الحقيبة التي تركتها لي ستيفاني، كانت تضم ملابسها، التي خبّرتني أنها تريد أن تحدث بالتخلي عنها قطيعة نهائية مع ماضيها، فهي من الآن فصاعدا سترتدي القفطان، والجلابية"**[7].
- ✓ وفي إسلام الرسام (إيتيان دينيه): لقد انسلخ (ناصر الدين) عن ثقافته ودينه ليتماهى في دين وثقافة أهل الصحراء الذين أحبهم، وأحب مدينتهم بجغرافيتها وطبوعها[8]، واستطاع محمد الأمين بن ربيع أن ينتصر

---

[1] ينظر محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، ص 88.

[2] ينظر المصدر نفسه، ص 39،40.

[3] ينظر إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: د. محمد عناني، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2006م.

[4] ينظر شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، ص207.

[5] شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، ص207.

[6] ينظر إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ص ص (244، 267).

[7] محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، ص (106، 107).

[8] ينظر المصدر نفسه، ص 36.

للهامش من خلال هذه الشخصية التّاريخية بعدما تماهى (ناصر الدين) الرسام في الأنا الجزائرية، فتخلى عن دينه وهويته الفرنسية ليتشبع بهوية عربية إسلامية جزائرية.

لقد كانت ثورة (أدريان وستيفاني) بحثا عن الحب والحرية، في نطاقٍ يمكّنهما من الإحساس بالذات، وغالبا ما كان عشق الغربيات للآخر محصورا في الرجل، ولكنه هنا اتفق أن يكون له انزياحان:

✓ الأول مجسدا في عشق الرجل العربي، والذي يعتبر "أحد التقاليد الاستشراقية"[1]:

فقد أحدثت (ستيفاني) القطيعة مع ماضيها، وتعلقت برقبة (مراد) وغادرت إلى مدن الجنوب، وأسلمت (أدريان) حبا في (نائل) لا اعتقادا بالإسلام، عكس الرسام (ناصر الدين دينيه) الذي أعلن إسلامه رغبة فيه، وتأثرا بعادات أهله وافتتانا بالصحراء وطبيعتها. (فأدريان وستيفاني) وجدا فيها التحرر من سلطة المجتمع الفرنسي؛ والذي كان قيدا يكبل المرأة الفرنسية آنذاك. وقد برز ذلك أكثر في الموقف الذي تعرضت له (أدريان) مع (نذير) صاحب فندق الصحراء يوم طلب منها أن تذهب في جولة على الأحصنة لوادي بوسعادة، وارتدائها السّروال الذي كان معتقدها المسيحي يمنع على المرأة الفرنسية ارتداءه[2].

✓ والثاني مجسدا في المرأة: فلم يحصر في حب ولا في شهوة جسد، بالقدر الذي حصر في الانبهار بالمرأة العربية ثقافة وعادات ونمط حياة[3]، سواء تَعلُّقُ (ستيفاني) بحياة المرأة العربية الشرقية، أو في تعلُّقِ (أدريان بيمينة البوسعادية)؛ كلاهما مجسدا في سحر الرقص حدّ الذوبان فيه.

ب– الميلاد وطقوس الرقص:

إذا كان الحب عند المرأة أحد مكنونات الذات فالرقص يعبر "عن وعي المرأة بهذا الجزء الآخر من ذاتها وهو جسدها"[4]، فالرقص طقس من طقوس التعبير العاطفي أو النفسي، يساعد على التحرر من الضغوطات النفسية، كما كما حدث مع (ستيفاني) عندما رقصت على وقع موسيقى الكمان وإيقاع الطبلة، وهو طقس من طقوس التطهير الروحي الذي يتناغم فيه الجسد مع الإيقاع بشكل قد يصل حد الهياج الذي تتخدر معه كل الحواس، ويخرج الراقص

[1] شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، ص216.

[2] محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، ص 127.

[3] ينظر محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، ص 95.

[4] سهير توفيق: الذات والحب، د. ط، د. ت، مطابع الأهرام بكورنيش النيل، ص 95.

من حالة الوعي إلى اللاوعي، كما يحدث في طقوس الحضرة[1] التي حدثتها عنها (ستيفاني) في رحلتهما، **"حيث نذهب الرقص يعتبر طقسا مقدسا، يساعدهم على التقرب إلى الملكوت الأعلى، ويشفيهم من الأمراض والعلل"** [2]، وهذا ما خَبِرته بنفسها بعد أن انغمست وتداعت على إيقاع البندير والناي كما علمتها يمينة **"بالغناء والرقص طهرت روحي من كل شائبة"**[3].

لقد انبهرت (أدريان/المركز) بطقس الرقص المقدس الذي اهتزت فيه على إيقاع البطايحي حد الإغماء، وهنا أحست كم هو تطهير وميلاد جديد لروحها، لكنها أضافت مفهوما جديدا للرقص في الصحراء عندما علمت من (يمينة/هامش) أنه مصدر رزق تقتات عليه **"أدركت أن الرقص هنا ليس فقط وصلا روحانيا بل هو أكثر بؤسا مما خبرتني به ستيفاني"**[4]، لقد أبرز الكاتب من خلال هذا العرض قيمة الهامش وبؤس ما يعيش فيه، ليرفعه بعدها مباشرة بعدما أُخِذت (أدريان) بجمال يمينة الجذاب الذي لم تنتبه له من قبل الحضرة. لقد رقصت (أدريان) وتماهت مع عادات وثقافة المكان بغرض الحرية بعد أن وجدت الحب، وتطهرت من كل قيود المقدسات الدينية والاجتماعية الفرنسية التي كانت تزعزع هويتها، وهكذا انتقلت بسلاسة وبقرار للعيش في بيت (نائل).

ج–نسق الملاذ من القتل:

لقد رفع الآخر الفرنسي/ المركز في هذه الرواية من قيمة الهامش، من خلال تفعيل الروائي لتقنية السرد المضاد التي تبنتها شخصيات (أدريان وستيفاني وإيتيان)، في حين أن (فيليب) انساق لسياسة الاستثمار الكولونيالي مجبرا، هاربا، إنه يمثل الآخر/الفار الذي يرى الحلول في جنوب الأحلام، إنهم كما عبرت عنهم (أدريان) فارون، هاربون، مشردون بلا هوية دين ولا هوية معتقد **"أغلب الموجودين هنا ما كانوا يمتّون للأدب أو العلم بصلة. أغلبهم فارون من القانون أو من التهديد بالقتل أو من الديون أو مشردون يبحثون عن قصور أحلامهم على الأرض الجديدة"**[5].

---

[1]ينظر محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، ص 133.

[2]المصدر السابق، ص 97.

[3]ينظر الصدر نفسه، ص 130، 131

[4]المصدر نفسه، ص 132.

[5]المصدر نفسه، ص 94.

ونلمح نسقا جديدا للآخر في رؤيته للصحراء بأن رآها "الملاذ من القتل... فالهرب المقترن بالخوف والقلق، يناقض المتعة والسرور"[1]،**"وماذا بعد توقيع كل هذه الأوراق؟ رغبت في سؤال فيليب، لكنه لم يمنحني فرصة لذلك، فقد كان يتحرك بشكل هيستيري منعني حتى مجاراته في خطواته الواسعة"**[2]. إن سعي (فيليب) للهروب إلى أبعد نقطة حتى لا يصل له دائنوه هو الحل الأمثل لاختيار الجنوب بالإضافة إلى كونه مكانا لبدء الاستثمار بأثمان زهيدة، وتحقيق ثروة أكبر كما زينتها لهم السياسة الكولونيالية.

فدافِع السفر عند (فيليب) للجنوب في ظاهره استثمار، لكن في مضمره هروب من التهديد بالقتل بسبب كثرة ديونه، **"لفيليب أكثر من سبب قد يدفعه إلى الاتجاه جنوبا ربما إلى أبعد نقطة قد يفكر دائنوه أنه قاصدها... لن يخطر لهم إطلاقا أنه اتجه إلى بسكرة أو تقرت أو حتى تيميمون"**[3]، ثم يأتي بعدها هدف لا يقله قيمة وأهمية هو عدمية (فيليب) بسبب فقره وقلة ماله الذي لم يمكنه من المكوث شمال الجزائر، لأن المناطق الشمالية تستدعي مالا كثيرا لتأسيس الحياة هناك، وهذا دليل على الحالة الاجتماعية المزرية التي كانت تعاني منها الطبقة المعدمة التي تسعى فرنسا إلى تشجيعها على الاستثمار في الجزائر، وخاصة المدن والقرى الصحروية. **"ينقصنا المال لنؤسس حياة هنا، الكثير من المال، حسنا يبدو أن فكرة الاتجاه جنوبا تتطلب مالا أقل، فالإدارة هنا تشجع تعمير تلك المناطق"**[4]، (ففيليب) دفعه خوفه ونقص المال، (وأدريان) دفعتها رغبتها في بحثها عن الذات، وحلمها في الحب والحرية.

3-سحر الصحراء فضاء الفتنة للآخر:

تُجسّد الصحراء في المتخيل الإنساني فضاءَ الشغف والاكتشاف والغموض، فهي تنماز بجمال طبيعتها الآسر، وتنوّعها البيولوجي الفريد؛ اللّذان يتعالقان معًا في توليفة تحدٍّ عميقة، بسبب قساوتها وغموضها وانفتاحها المترامي الأطراف، مما يجعل روادها وقاطنيها يطورون علاقات معقدة مع هذه البيئة الساحرة.

---

[1] شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، ص209.

[2] محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، ص 108.

[3] المصدر نفسه، ص 118.

[4] المصدر نفسه، ص 110.

وفتنة الصحراء ظاهرة ثقافية وسيكولوجية، تنشأ عن طريق توطيد ارتباطٍ وثيق الصّلة تخلقه خصوصية المكان، الذي "يؤثر على الكائن الإنساني ويمنحه ملامح تميزه عن غيره وتنسبه لذلك المكان"[1].

وهكذا، نجد أن سرّ هذا الانجذاب والتّعلق يفسر شعور الانبهار الذي يحدث نتيجة التّماس مع عناصر الموروث الثقافي، والذي أحدث ردة فعل استثنائية تَحقق فيها انتصار الهامش، وتماهي المركز فيه. ويبرز ذلك في قول (نائل لأدريان) **"ستجدين هنا الكثير مما يجب عليك إدراكه، فبوسعادة منذ عقدين من الزمن تقريبا أصبحت محجة الراغبين في التقاط مالا يدرك"**[2].

لقد ارتبط (ناصر الدين دينيه وأدريان) بالصحراء وفتنة الصحراء، وهذا ما عزز قرار الانتساب الهوياتي الديني والثقافي كلٌّ حسب قناعاته، وكل واحد منهما انغمس وتماهى بطريقته مع مجموع القيم والتقاليد والممارسات التي ترتبط بخصوصية البيئة الصحراوية. لقد افتتن الرسام (دينيه) باللهجة الجزائرية فأتقنها، وانبهرت (أدريان) بمخارج حروفها. **"قال عبارته الأخيرة بلغته، كم كانت رنانة، استقرت مدة في أذني، ربما رددتها محاولة نطق الحرف الحلقي كما فعل هو"**[3]، إنها حسب وعي الهامش/ نائل **"تثبت يوما بعد آخر أنها ذات قابلية فائقة على الاندماج، وعلى استعداد تام لتكون واحدة منا، تتعلم اللغة وتؤدي واجباتها كأي امرأة أخرى، ولا تجد ضيرا في أن تستمع لتوجيهات أمي"**[4].

ويمكن من خلال الدراسة، حصر مجموع المحمولات الدّلالية للأماكن التي مثلت الركيزة في إبراز أشكال الانبهار وتماهي الآخر في البيئة الصحراوية كما يلي:

- **بوسعادة بوابة السحر**: المكان المفتوح[5] الذي هيأ (لأدريان وإيتيان) الحرية والحب، الحرية التي لم تمنحها فرنسا لشعبها، فأصبح الحب والمعتقد معا جسرا يطآن به أعماق الجنوب وينهلان من سحره وخصوصيته الأخاذة **"كانت أرضا مختلفة عن الأراضي التي مررنا بها منذ انطلاقنا من العاصمة، الكثبان الرملية**

[1] محبوبة محمدي محمد آبادي، جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، د. ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة: دمشق، 2011م، ص 50.

[2] محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، ص 123.

[3] المصدر نفسه، ص 121.

[4] المصدر نفسه، ص 170.

[5] ينظر محبوبة محمدي محمد آبادي، جماليات المكان في قصص سعيد حورانية.

كانت تلوح تباعا كأنها قافلة متجهة جنوبا. الجبال جرداء ذات ألوان غريبة، لم أحددها لأنها لم تكن متفقة في لون واحد، بعضها بني وبعضها أصفر، والجبل البعيد كان أمغر"[1]. لقد سحرها مساء بوسعادة فقد كان **"ساحرا، استقبلنا بتموجات ألوانه المشتقة من الأحمر بكل تدرجاته، كان هذا اللون أول ما فتحت عليه عيني حين لكز فيليب كتفي بذراعه"**[2].

- **فندق الصحراء:** لقد توقفت (أدريان) طويلا أمام الباب الخشبي للفندق، ووصفت بإمعان نقوش الباب[3]، وتأكد لها يومها بأن هذه **"المدينة هي الجنة التي وعدت بها"**[4] نفسها، إنه التأكيد على حجم الرغبة في ممارسة الحلم الذي سيطوي صفحة الحرمان لتبتدئ معها رحلة حريتها وقرار إعلانها الاستقرار بعيدا عن نزق زوجها (فيليب)، وقطيعتها مع ماضيها المدنس.
- **دكان الصباغة:** لقد مثل هذا المكان المغلق المعبق برائحة الموروث المادي، مكانا لبداية شرارة الحب بين (نائل وأدريان)، فيه أدركتْ من أول حوار أنه الغريب المقصود في أحلامها، والذي كان يلوح لها من خلف أمواج البحر، وفيه كانت تخطط لكيفية هروبها إلى أحضان (نائل) وبوسعادة معاً.
- **وادي بوسعادة:** رُبط هذا المكان المفتوح–الذي قدم من خلال طبيعته الخلابة للآخر المغامرة وحب الاستكشاف– بمدلولات نفسية عديدة تمثلت في كونه يحمل نسق:

1- الهروب: هروب (أدريان) مع (نائل) وبداية الشغف **"وعندما وصلنا إلى الوادي لم أفكر إلا في اللحظة الأولى التي ستسبق ولوجي إلى البيت وسيدة شقراء إلى جانبي"**[5].

2- السياحة والفتنة: لقد مثل الوادي (لإيتيان) فضاء طبيعيا لممارسة هواية الرسم والاستكشاف. **"كان ذلك يوم قرر الرسام الفرنسي إيتيان النزول إلى الوادي ليلتقط بعض الصور هناك ليرسمها لاحقا... كيف لا وقد كان يحتضن عذارى المدينة وفاتناتها النايليات، وهن يقمن بغسل**

[1] محمد الأمين بن ربيع، قدس الله سري، ص 121، 122.
[2] المصدر نفسه، ص 120.
[3] ينظر المصدر نفسه، ص 123، 124.
[4] المصدر نفسه، ص 125.
[5] المصدر السابق، ص 46.

الصوف"[1]. و(لأدريان) فضاء المتعة والسياحة يوم ذهبت مع (نذير) صاحب الفندق في رحلة للوادي من أجل رؤية الأسود.

3- كشف المدنس: لقد باحت (أدريان لنائل) بكل ماضيها في هذا المكان، محاولة التخلص من كل دنس مرّ على جسدها. **"هل كان عليَّ أن أشفق عليها؟ ... لا أدري إن كان عليَّ الإحساس بالشفقة أم بالقرف؟ فأمسكها من ذراعها وأجرها على حصى الوادي حتى تفرم على نتوءاته، وتأكل لحمها الكلاب"**[2].

4- التخلي ونقطة البدايات: مثل الوادي/ المكان الذي أحدثت (أدريان) القطيعة فيه مع معتقدها وماضيها معاً **"ما دام قلبي هداني إليك فلابد أنه هو الذي يطلب مني أن أتبع ما تقوله لي، فليكن لك ما أردت، بإمكانك أن تعتبرني منذ الآن مسلمة"**[3].

5- إقبال وإدبار: هو مكمن البدايات والنهايات، وهو الشاهد على علاقة (نائل بأدريان) **"كانت تحثّ الخطو مغادرة دون أن تلتفت ولو لمرة أخيرة، كانت تنحدر، وكان هناك ظل ينسحب ببطء، وكان طويلا جدا، يتخذ تعاريج الأرض"**[4].

- **المسجد:** دخول (أدريان) وانبهارها به عند إعلانها الإسلام وعقد قرانها بنائل. **"لاحظت انبهار أدريان ونحن نلج المسجد"**[5].

خاتمة:

أخيرا بعد دراستنا لمجموع الأنساق الثقافية التي رسمها السرد المضاد يمكن أن نقف على النتائج التالية:

- يعكس المنجز الروائي لمحمد الأمين بن ربيع، مجموعة الروابط الثقافية التي كونتها الشخوص الأجنبية في الرواية، من خلال تأصيل الهوية الثقافية التي تشكلت إثر تقاطع المركز والهامش.

---

[1] المصدر نفسه، ص 36.

[2] المصدر نفسه، ص 134.

[3] المصدر نفسه، ص 66.

[4] المصدر السابق، ص 175.

[5] المصدر نفسه، ص 139.

- لقد استحضر الروائي أحداثا تاريخية في رواية ما بعد كولونيالية ليطيح بالمركز ويعلي من الهامش، وينتصر له في سرد مضاد يتأثر فيه الآخر بالأنا الجزائرية، وينبهر بثقافة وطبيعة الصحراء الجزائرية، وتلك المخصوصة أيضا في طقوس الرقص والوصل الروحاني.
- أبرز الروائي نسق الهروب بحثا عن الحب والحرية التي كان يفتقدها الآخر الفرنسي لصرامة المقدس، وعرف الطبقات البرجوازية الكادحة من أجل الحفاظ على مكانتها. فالمركز مهلهل في بنيته الاجتماعية والدينية، ويبحث عن حلول لهذه الطبقات المعدمة في الأرض الجديدة، ويشجع على رفع هذه الصورة عنه وعن شعبه بالهجرة إلى الجنوب والاستيطان فيه وإعماره.
- وضح الروائي عمق الرغبة عند الآخر في الحرية واكتشاف الأغوار وعلاقتها بالبحث عن الحب كسيكولوجية فطرية، والانغماس في العادات والمعتقدات، وحصرها بين انبهار وتجربة يبحث فيها عن ذاته، وهويته، ليصل أحيانا بها حدّ التماهي والذوبان في خصوصية الأنا الجزائرية. فبوسعادة بوابة الجنوب، ملاذ الهروب والنجاة والحرية والحلم، هروب النّبذ، هروب التفرغ والنذر لممارسة الغواية، هروب نحو الاستثمار والإعمار كسياسة، ونزوح من أجل الجمال الطبيعي والبشري.

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر:

- ✓ محمد الأمين بن ربيع، (2016م)، قدس الله سري، د.ط، منشورات الوطن اليوم، الجزائر.

2. المراجع (مؤلفات):

1) سعيد إدوارد، (2006م)، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: د. محمد عناني، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع.
2) شهلا العجيلي: (1432هـ/ 2011م)، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
3) محمد الشحات، (2022م)، خارج المنهج، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
4) عبد الفتاح أحمد يوسف، (2021م)، النقد الحضاري لخطاب ما بعد الكولونيالية، الطبعة الأولى، دار الروافد الثقافية – ناشرون، لبنان.

5) محبوبة محمدي محمد آبادي، (2011م)، جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، د. ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق.
6) سهير توفيق، (د.ت)، الذات والحب، د. ط، مطابع الأهرام بكورنيش النيل، مصر.

3. المواقع الإلكترونية:

1) آمنة بلعلى، (2017م)، متخيل الصحراء وإعادة تشكيل المركز في الرواية الجزائرية. https://www.symiaconseil.dz/
2) إبراهيم مشارة، (2020م)، إيتيان دينيه.. منعطف جديد في الفن الاستشراقي. مجلة قلم رصاص الثقافية(qalamrsas.com)